أدب الأندلس بوصفه منطلقاً للآداب الأوربية الغربية

أ.د. عبد النبي اصطيف*

ليس ثمة من يماري في أن *"تاريخ كامبريدج للأدب العربي"* *The Cambridge History of Arabic Literature* يعدّ من أبرز المؤشرات على التحولات الإيجابية[1] التي تشهدها الدراسات العربية في العالم الأنكلو-أمريكي في العقود الأربعة الأخيرة. ذلك أنه بمجلداته الستة[2]، التي ترصد تحولات الأدب العربي على مدى ستة عشر قرناً، غدا مرجعاً لا يستغني عنه دارس اللغة العربية وآدابها، ودارسو الأدب المقارن في العالم، إذ يسّر لهؤلاء الأخيرين، من خلال استعماله للغة الإنكليزية أداة له، معرفة بهذا الأدب

---

* أستاذ الأدب المقارن ـ جامعة دمشق.

(1) انظر: عبد النبي اصطيف، "نحن والاستشراق: تحوّلات ومؤشّرات إيجابية"، ***دراسات يمنية*** (صنعاء)، العدد ٤٩، كانون الثاني – آذار ١٩٩٣م، رجب – رمضان ١٤١٣ هـ، ص ص (٥٨- ٩٩)، ولاسيما ص ص (٨٩- ٩٣).

(2) االنظر:

Allen, Roger, and Richards, D. S.,***The Cambridge History of Arabic Literature: The Post-Classical Period,*** (Cambridge University Press, Cambridge, 2006).
Ashtiany, Julia et al. (eds.), ***The Cambridge History of Arabic Literature: Addasid Belles – Lettres*** (Cambridge University Press, Cambridge, 1990).
Badawi, M. M.,***The Cambridge History of Arabic Literature: Modern Arabic Literature*** (Cambridge University Press, Cambridge, 1992).
Besston, A.F.L. et. Al. (eds.),***The Cambridge History of Arabic Literature: Arabic Literature to the End of the Umayyad Period*** (Cambridge University Press, Cambridge, 1983).
Menocal, Maria Rosa, Raymond P. Scheindlin, and Michael Sells (editors),
The Cambridge History of Arabic Literature :
The Literature of Al-Andalus (Cambridge University Press, 2000).
Young, M. J. L., Latham, J.D. and Serjeant, R.B., ***The Cambridge History of Arabic Literature: Religion, learning and science in the 'Abbasid period***, (Cambridge University Press, 1990).

تتمتع بمستوى رفيع من الإتقان والمهنية والخبرة والمعرفة، نهض بإنتاجها نخبة من علماء العربية والأدب العربي من العرب والمستعربين من شرق العالم وغربه وشماله وجنوبه، تعاونوا فيما بينهم على تقديم تاريخ موثق وموضوعي لواحد من أقدم آداب العالم الذي تميز بعراقته، واستمراره، وتعدد أعراق وثقافات ولغات منتجيه، فغدا بحق صرحاً إنسانياً عالمياً بمقدار كونه أدباً قومياً ناطقاً بلغة *القرآن الكريم*.

والحقيقة أن ما يميز هذا التاريخ ويرتقي به إلى مصاف الروائع البحثية التي تباهي بها **جامعة كامبريدج** ومطبعتها العريقة، أمور عديدة:

أولها أنه **عمل جمعي**، ومعظم تواريخ الأدب العربي التي ألفها العربي والمستشرقون **أعمال فردية**؛

وثانيها أنه يقوم على **شراكة معرفية بين الداخليين من الباحثين العرب وبين الخارجيين** من المستعربين الأجانب؛

وثالثها أنه **ميسور لما يقرب من سكان عالمنا**، لأنه اتخذ من **الإنكليزية أداة له**، وهي لغة مستعملة من نحو ثلث سكان المعمورة؛

ورابعها أنه عمل **متأن وجاد ومتقن قامت بإنجازه مؤسسة علمية مرموقة هي مطبعة كامبريدج المعروفة بتاريخها العريق في إنتاج المعرفة بشتى مجالاتها.**

وخامسها أنه يعنى عامة **بعلاقات هذا الأدب بآداب العالم الأخرى**، ومن ثَمَّ فإنه **يضع الأدب العربي في إطار عالمي واسع يوضح وجوه تفاعله مع آداب العالم الأخرى شرقيها وغربيها وشماليها وجنوبيها.**

وسادسها أنه **عمل يراعي خصوصية هذا الأدب** بتنبهه في مجلده الخاص بـ***أدب الأندلس***[1] إلى هذه الفسحة المثيرة من فسح الأدب العربي التي اتسمت بالتعددية والغنى والتسامح والعيش المشترك بين ديانات ثلاث، وبين شعوب وأعراق عديدة، فكان لنا منها أدب فريد متميز، يعكس تفرّدها وغناها.

وربما كان من أبرز ما يقدّمه هذا المجلد هو عنايته بمهاد هذا الأدب من جانب، وبتخومه من جانب آخر. ولذا فقد كان من الطبيعي أن يعهد القائمون على هذا التاريخ بتحريره إلى **ثلاثة باحثين يعملون في فسحة**

---

[1] انظر:

The Cambridge History of Arabic Literature : The Literature of Al-Andalus
Edited by Maria Rosa Menocal, Raymond P. Scheindlin, and Michael Sells
(Cambridge University Press, 2000) .

التخوم أو المناطق الحدودية بين اللغات والآداب والثقافات والأديان، التي تعايشت في هذه الفسحة بانسجام لم تشهده الإنسانية في أية بقعة أخرى، مما جعل الأندلس فسحة إبداع فريد يقوم على غنى التنوع، ومناخ العيش المشترك، وروح التسامح الذي يقبل "الآخر" المختلف بوصفه عنصراً أساسياً في تشكيل جماليات الإبداع الأندلسي في مختلف المعارف والعلوم والفنون، ولاسيما الأدب الذي تحدث بأكثر من لغة، وأنتجه كتاب من أعراق وديانات وثقافات متعددة، في ظل الحضارة العربية الأندلسية التي لا تزال شمسها الدافئة تستنهض دفئاً لا غنى عنه في العلاقات الإنسانية.

وهؤلاء الباحثون هم:

- **ماريا روزا مينوكال** المختصة بالإسبانية والبرتغالية، وأستاذة الأدبين الإسباني والبرتغالي في **جامعة ييل**، ومديرة البرامج الخاصة في العلوم الإنسانية فيها، وصاحبة عدة كتب[1] مثيرة انصرفت فيها إلى دراسة ما سمته التراث المنسيّ، وعنت به ***الدور العربي في التاريخ الأدبي الوسيط***، مبرزة الدور الذي أدّته الأندلس في النهضة الأدبية الأوربية في ميادين الشعر والقصة والرواية؛
- **ريموند ب شندلند** أستاذ الأدب العبري الوسيط في **السيمنار اللاهوتي اليهودي** في أمريكا؛
- **مايكل سيلز**، أستاذ مقارنة الأديان في **كلية هافرفورد Haverford College**.

---

[1] انظر:

Maria Rosa Menocal , ***The Arabic Role in Medieval Literary History: A Forgotten Heritage***
(University of Pennsylvania Press, Philadelphia, 1987).

ماريا روزا مونيكال، ***الدور العربي في التاريخ الأدبي للقرون الوسطى (تراث منسي)***، ترجمة الدكتور صالح بن معيض الغامدي (جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٩).

وانظر كذلك كتبها الأخرى:

- ***Writing in Dante's Cult of Truth: From Borges to Boccaccio***
(Duke University Press, Durham and London, 1991).

- ***Shards of Love: Exile and the Origins of the Lyric***
(Duke University Press, Durham & London, 1994).

- ***The Ornament of the World:***
How Muslims, Jews, and Christians Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain,
(Little Brown, Boston, New York and London,2002).

وانظر ترجمة عربية للكتاب الأخير: ماريا روزا مينوكال، ***الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح***، ترجمة عبد المجيد حجفة ومصطفى جباري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب ٢٠٠٦.

وانظر كذلك كتابها المشترك:

Jerrilynn D. Dodds, Maria Rosa Menocal and Abigail Krasner Balbale,
The Arts of Intimacy:
Christians, Jews, and Muslims in the Making of Castilian Culture,
(Yale University Press , New haven & London, 2008).

ولكنهم جميعاً يعرفون اللغة العربية بسبب كونها أداة لا غنى لهم عنها في دراساتهم المقارنة، إذ كانت اللغةَ السائدةَ في شبه الجزيرة الأيبرية على مدى أكثر من عشرة قرون، وتركت أثراً لا يمّحي في سائر اللغات التي تحدث بها سكان الأندلس، من العرب، والبربر، واليهود، والمستعربين من السكان الأصليين.

ومما يسترعى ملاحظة القارئ لهذا المجلد عنوانه: ***أدب الأندلس*** ***The Literature of Al-Andalus*** (وليس **الأدب العربي الأندلسي**، أو **الأدب الأندلسي**، بوصفه فصلاً مهماً من تاريخ الأدب العربي المديد). ولدى قراءة المادة الغنية والممتعة والمثيرة التي عُنِيت بها فصوله الستة والشعرون يتبيّن له أن محرِّريه قد عَنَوا بأدب الأندلس، ما **أنتجه سكانها –متعددو الثقافات واللغات والأديان- من آداب وفنون في العصور الوسطى عندما كانت "منطقة إسلامية ناطقة بالعربية في الغالب" في الفترة ما بين القرن الثامن والقرن الثالث عشر، وفي القرون التالية لعملية الاسترداد المسيحي Re-conquest لشبه الجزيرة، التي استمرت اللغة العربية فيها مستعملة على نطاق واسع.**

ومعنى هذا أن **الأدب العربي الأندلسي** لم يكن غير واحد من هذه الآداب، مع أن **الغلبة فيها كانت للغة العربية التي اُتخذت بمستوياتها المختلفة أداة لهذه الآداب، التي انتشرت في شبه الجزيرة الأيبرية، وتفاعلت إذ تجاورت وتزاوجت، وكان تفاعلها الحميم هذا وراء جُلِّ التطورات التي خضعت لها على مدى هذه القرون.**

فقد كان إلى جانب هذا **الأدب العربي الرفيع والمتميز**، وهو أدب النخبة السياسية والفكرية والثقافية والأدبية:

- **أدب عبري مكتوب بالعربية- اليهودية، أو بالعربية المدوّنة بالخط العبري، وبالسبرية التوراتية**، التي دخلت مجال الأدب الدنيوي مستلهمة التجربة العربية الغنية التي كانت المثال الذي تطلّع إليه سكان شبه الجزيرة على اختلاف لغاتهم وأديانهم وثقافاتهم. وكان إلى جانبهما:
- **أدب إسباني محلّي مكتوب باللاتينية من جانب خاصة أدبائهم وبالرومنثية من جانب عامتهم**، فضلاً عن **أدب عامي مكتوب بالعربية العامية الأندلسية** التي شاعت بين المستعربين ممن تحولوا إلى الدين الإسلامي، أو عاشوا في ظل حكامه من المسلمين.

ولهذا غلبت على فصول الكتاب، الموزعة على ستة أقسام، **المقاربة المتداخلة المعارف approach Interdisciplinary من جانب والمقاربة المقارنة comparative approach من جانب آخر**، والهدف من تبني هاتين المقاربتين هو **إبراز تواشج هذه الثقافات الإنسانية الرفيعة التي مهدت للنهضة الأوربية التي غيّرت تاريخ الحضارة الإنسانية**، وهو ما سعت إلى توضيحه ماريا روزا مينوكال في مدخل المجلّد الذي عنونته

بـ "رؤى الأندلس" والذي أكدت فيه أن "أدب الأندلس" أدب فريد يقوم إنجازه على التنوع الخلاق الذي يسّرته فسحة الإقليم الذي جمع، على مدى قرون تسعة، أعراقاً متنوعة، آرية وسامية استظلت بمناخ العيش المشترك الذي كفلته الحضارة العربية الإسلامية. وعلى الرغم من احترام هذه الحضارة للغات هذه الأعراق وثقافاتها وآدابها وفنونها وأديانها، فإن شعوب شبه الجزيرة اختارت اللغة العربية واتخذتها لسان صدق تعبر به عن هويتها في مجتمعات الأندلس التي اغتنت بتنوعها اللافت للنظر، وأفسحت المجال واسعاً أمام الإبداع الإنساني في مختلف مجالات العلوم والمعارف والفنون.

أما الفصول الستة والعشرون فقد عُهِد بها إلى مختصين بأيبيريا الإسلامية وصقلية من مختلف أنحاء العالم، سعوا، كلٌّ بطريقته ومعرفته النوعية المشهود له بها، إلى إبراز هذا الإسهام القائم على التنوُّع والتعددية والعيش المشترك الذي أطاحت به **حركة الاسترداد Re-conquest** عندما أصرّ حَمَلَةُ رايتها العنصرية على أن تكون **إسبانيا مسيحية كاثوليكية**. وهكذا قام أتباعها بطرد كل مسلم وكل يهودي فيها بذرائع واهية ومختلقة، متنكرين لعهود مليكيها ومواثيقهما التي وقّعا عليها مع ملك غرناطة، بل إنهم تنكروا في ذلك لتاريخ إسبانيا ذاتها وللحضارة التي بنتها الشراكة الإنسانية في ظل الحكم العربي-الإسلامي.

فأما الجزء الأول والذي يضم خمسة فصول ويحمل عنوان **"أشكال الثقافة"** فإنه يقارب مادته مقاربة موضوعاتية Thematic، ويُعدّ مدخلاً إلى عالم الأندلس إذ يعطي القارئ صورة مجملة للفسحات الثقافية البارزة في هذا الإقليم ولِما يميزها من قسَمات، ويتوجه مؤلِّفوه به إلى دارس العربية وآدابها، ودارس الأدب الإسباني والبرتغالي، ودارس الثقافة الأوربية في العصور الوسطى ومطلع عصر النهضة.

وهكذا ينصرف كونسويلو لوبيز- موريلاس في الفصل الأول منها إلى دراسة **لغات الأندلس** من الفترة التي سبقت الفتح العربي الإسلامي وحتى خروج العرب والمسلمين واليهود من شبه الجزيرة، متوقفاً بشكل خاص عند لغات الإقليم في الفترة الإسلامية: أي **اللغات اللاتينية والرومنثية والعربية بمستوياتها المختلفة، ولغات كل من البربر واليهود والمسيحيين الإسبان**، ليختم فصله بدراسة **ظاهرة "أخيميادو" أو اللغة "الأعجمية" التي سادت بعد اكتمال سيطرة المسيحيين الإسبان على شبه الجزيرة**، وطرد المسلمين واليهود منها، في مطلع القرن السابع عشر، وبالتحديد عام ١٦٠٩م. والحقيقة أن هذا الفصل يفتح عيون القارئ على آفاق جديدة في موضوعه تشرح **الاستثناء الأندلسي**، وهو مفيد غاية الفائدة لدارس العربية ودارس عصر النهضة الأوربية على حد سواء.

بعدها يدرس دوايت رينولدز في الفصل الثاني "**الموسيقا الأندلسية**" متوقفاً عند مكوناتها التي تشمل التقاليد الشرقية: العربية والفارسية، والتقاليد الإيبرية، وتقاليد جنوبي فرنسة، مؤكداً حيوية هذه الموسيقا وامتداداتها من حيث المكان إلى الشرق والغرب، ومن حيث الزمان حتى القرن العشرين، إذ لا تزال هذه الموسيقا حية ليس فقط في إسبانية وأمريكا اللاتينية، بل إنها لا تزال عنصراً مهماً وفاعلاً في موسيقا شمالي إفريقيا والمشرق العربي.

أما الفصل الثالث فهو مخصص للفسح المعمارية الأندلسية والمنتشرة في مختلف أنحاء شبه الجزيرة، ولاسيما غرناطة، وإشبيلية، وقرطبة، وطليطلة، وسرقسطة (قصور الحمراء، ومسجد قرطبة، وكاتدرائية طليطلة، وكنيس اليهود فيها، فضلاً عن قصر الجعفرية في سرقسطة). في حين ينصرف بيتر هيث إلى دراسة "**المعرفة**" في الفصل الرابع، متوقفاً عند "مراتب العلوم" عند ابن حزم، وعند اكتساب المعارف ونقلها، ومقدماً عرضاً تاريخياً مجملاً للإنجازات الأندلسية في فتراتها الثلاث: (الفترة الأولى بين عامي ٧١١-٩٦١م/ ٩٢- ٣٥٠هـ؛ والفترة الثانية بين عامي ٩٦١- ١٢٣٨م/ ٣٥٠- ٦٣٦هـ؛ والفترة الثالثة بين عامي ١٢٣٨- ١٤٩٢م/ ٦٣٦- ٨٩٧هـ)، دارساً في كل منها ضروب المعرفة الثلاثة: المعرفة المقدسة، والمعرفة الدنيوية، والمعرفة العلمية.

أما الفصل الخامس فهو مخصص لدراسة موضوع "**الحب**" الذي يناقشه مايكل سيلز موضحاً مركزيته في الثقافة الأندلسية، ومتوقفاً عند "**الحب الرفيع**" أو "**حب البلاط**" Courtly Love، والحب المتهتك أو الباخوسي أو Bacchic Love (نسبة إلى باخوس Bacchus إله الخمرة عند اليونان) وحب العامة.

ويضم الجزء الثاني المعنون بـ "**أشكال الأدب**" ثلاثة فصول موسعة عن كل من "**الموشح**"- هذا الجنس الشعري المركّب الذي تداخلت نشأته في الأدب العربي الأندلسي على نحو حميمي مع الآداب المعاصرة له في شبه الجزيرة الأيبيرية وبخاصة الأدب الرومانثي؛ و"**المقامة**" التي استلهمها الأدب العبري في عصره الذهبي، والأدب الأسباني في عصره الذهبي كذلك وبخاصة فيما بات يعرف **برواية الكدية** أو **البيكاريسك Picaresque**؛ و"**القصيدة**" في آداب الأندلس، خاصة وأنها تشغل موقع المركز في الأدب العربي عبر عصوره المختلفة، مثلما تشغل الموقع نفسه في الأدب العبري في عصره الذهبي في الأندلس، عندما حاكى الشعر فيه مختلف ملامح الشعر العربي الأندلسي شكلاً ومضموناً بما في ذلك موضوعاته وصوره وعروضه.

أما الجزء الثالث فهو **مخصص لأعلام الأندلس العرب واليهود والمستعربين الإسبان**، ويضم عشرة فصول مرتبة زمنياً تتناول شخصيات **ابن حزم، وعزرا بن موسى، وجودِه حلوي، وبطرس ألفونسي، وابن قزمان، وابن زيدون، وابن طفيل، وابن عربي، ورامون لَل، وابن الخطيب**، وقد بذل كُتّاب فصوله جهداً خاصاً لوضع كل شخصية من هذه الشخصيات في لحظتها التاريخية من جهة، وبيان إسهامها المتميز في نسيج

لحظته هذه من جهة أخرى. ويبدو أن هيئة تحرير الكتاب قد لاحظت أن **ابن رشد** معروف جداً للقاصي والداني من العرب وغيرهم من الأوربيين وقد كُتب عنه الكثير من الكتب والأبحاث ولذلك أغفلته في هذا القسم، ولكن ذلك حرم القارئ من فرصة وضع إسهامه في الإطار العام لأدب الأندلس.

وأما الجزء الرابع فهو مخصص لجزيرة صقلية، ويكاد يكون مُنَمنمةً لمجلد ***"أدب الأندلس"***، إذ يدرس في ثلاثة فصول **أشعار البلاطات النورماندية، وابن حمديس وشعر الحنين، ومايكل سكوت والترجمات**، موضحاً بذلك **تأثير الثقافة الأندلسية في آداب غربي المتوسط**، في حين ينصرف المسهمون في الجزء الخامس إلى دراسة **"الزيجات والمنافي"** عند جماعات بشرية متميزة في الأندلس (هم "المستعربون"، و"اليهود المستعربون"، و"السفارديون"، و"الموريسكيون") شكلت النسيج البشري الفريد لإقليم الأندلس.

وكما يفتتح المجلد بقصيدة غابيريول **"غرناطة"** بترجمة ريموند شندلند، فإن الجزء السادس منه يختتم بقصيدة ابن زيدون النونية، التي ترجمها مايكل سيلز، ووضع لها عنواناً موحياً هو **"إلى الأندلس – هل سترد التحية"**.

والملاحظ أن أهم ما يؤكده المجلد هو ما تركه هذا **التنوع الخلاق** في إقليم الأندلس من **أثر في الإنتاج الأدبي والفني لسكانه الذين نعموا بالعيش المشترك وشكروا هذه النعمة بإنتاج فريد لم تعرفه الإنسانية من قبل وما زال موضع اهتمام الباحثين والدارسين والأدباء والفنانين يستقون منه الإلهام والدروس والعبر.** ولأن هذا الإنتاج تراث إنساني فإنه ينبغي أن يكون متاحاً للجميع إسباناً وعرباً وأوربيين، بل لسائر البشرمن مختلف أنحاء المعمورة.

ولكن ما فات محرري ***المجلد***، الذي يُشكِّل بحق ذخيرة ذهبية لكل دارسي آداب الأندلس، هو بيان **أثر هذه الآداب فيما وراء حدود شبه الجزيرة الأيبيرية**، وبالتحديد في **نشأة مختلف الآداب الأوربية** التي تخلّت بالتدريج، منذ مطالع عصر النهضة، عن اللاتينية لصالح اللهجات المحكية[1] المستمدة منها والمتأثرة بما حولها من تطورات سياسية واجتماعية وثقافية ولاسيما في فسح شبه الجزيرة الأيبرية، وجنوبي فرنسا، وصقلية وجنوبي إيطاليا.

---

[1] انظر بحث موريل ميراك فايسباخ:

Muriel Mirak Weissbach, "The Power of Great Poetry to Shape Character and Build the Nation: Dante, Humboldt, and Helen Keller", ***Fidelio***, Volume, 5, No. 2, Summer 1996, pp.4-28.

والذي تناقش فيه دور دانتي بشكل خاص في إنشاء اللغة الإيطالية مستلهماً في ذلك تجربة اللغة العربية ودورها في توحيد المسلمين بوصفها لغة عبادة وتشريع وحياة في آن معاً.

صحيح أن المجلّد لا يُغفل ما تركه الأدب العربي، والثقافة العربية عامة، في إعادة تشكيل الأدب العبري، والثقافة العبرية عامة، فيما بات يُعرف بالعصر الذهبي لهذه الثقافة، وصحيح أنه لا يتجاهل ما تركه أدب المستعربين من أثر في نشأة فني الموشح والزجل في الأدب العربي، وما أداه هذان الفنان من دور في تطوير هذين الفنين في الأدب العبري، وأنه لا ينسى كذلك تأثير فن المقامات المشرقي في آداب الأندلس: في الأدب العربي أولاً، ثم في الأدب العبري ثانياً، وفي الأدب الإسباني المكتوب بالرومنثية ولاسيما أدب الكدية، أو البيكاريسك لاحقاً، ولكنه لا يلتفت على سبيل المثال إلى الدور الذي أداه **الأدب العربي الأندلسي خاصة في آداب أوربة الوليدة التي يُعَدُّ الأدب الأوكسيتاني، الذي ظهر كالطفرة في جنوبي فرنسا في منطقة البروفنسال في القرن الثاني عشر الميلادي، على شكل أناشيد أو أغان Songs تستلهم تجارب الموشح والزجل العربيين في الأندلس، عُرِفت بأناشيد التروبادور، الأبَ الحقيقي لها، والبدايةَ المعجزة التي ألهمت القارة برمتها**[1]، وكانت وراء نشأة ما يعرف بآدابها القومية المنتَجَة بلغات عامّتها.

غيوم التاسع أول التروبادور

يكتب ستيفن ج. نيكولز Stephen G. Nichols عن أول شاعر غنائي في آداب العامية في أوربة، وهو غيوم التاسع، أو ويليام التاسع، دوق أوكسيتانيا، والتروبادور الأول، فيصفه بأنه الأرستقراطي الأغنى والأقوى في أوربة الغربية، الذي توفي عام ١١٢٧، ويقول إنه كان في حياته معروفاً بثروته المعتبرة وحملاته العسكرية ضد جيرانه، وحملته الصليبية التي دُمِّرت حتى قبل وصولها إلى بيت المقدس، وخلافاته مع الكنيسة نتيجة إسرافه على نفسه في علاقاته النسائية حتى أنها تبرأت منه، غير أنه معروف اليوم بأنه "**الشاعر الغنائي الأول الذي كتب شعره بالعامية، وأنه التروبادور الأول**"، ويضيف:

"لقد كانت العامية في حالة ويليام لغة جنوبي فرنسا، لغة الأوك Langue d'oc أو لغة البروفنسال Provencal. وكانت، عام ١١٢٧، لغة الثقافة العليا، من شمالي فرنسا وحتى إيطاليا، يعرفها الشعراء والأرستقراطيون، وكانت جدّ متميزة إلى درجة أن دانتي دعاها، بعد قرنين، "اللغة الأم للشعر العامي بأسره".

---

[1] انظر بحث "الأندلس: بوابة للنهضة الذهبية"، لموريل ميراك فايسباخ:
Muriel Mirak Weissbach, "Andalusia: Gateway to the Golden Renaissance", ***Fidelio***, Volume 10, No. 3, fall 2001, pp. 22-35.
والذي تناقش فيه التأثير الأندلسي في آداب أوربة عصر النهضة وتقارن بين زجل أندلسي لابن قزمان الأدلسي، وقصائد غنائية: إسبانية، وإيطالية، وبروفانسالية، وألمانية، تنتمي إلى الفترة ذاتها مركزةً على نظام القوافي فيها الذي يكاد يكون واحداً.

"لقد غير ويليام، بمفرده تقريباً، المشهد الأدبي لأوربة الغربية، بإبداعه جنساً جديداً، هو قصيدة الحب الغنائية المركَّبة، التي دغمت الشعر بالموسيقى، وأدى الصوت الإنساني في هذا الشكل الجديد دوراً خطيراً. فللمرة الأولى، لم يعطِ المغني صوتَه لأداء السرد، ولكنه اتخذ لنفسه هويةً شعرية: كان الذاتَ المتحدثةَ كذلك عن موضوع القصيدة"(١)

وعلى خلاف ما هو متوقع من شاعرٍ ذي حياة حافلة بالحروب والمغامرات مثل غيوم التاسع، أو ويليام التاسع، فإن شعره لم يكن شعراً ملحمياً، ولم تكن أغانية معنية بالقضايا السياسية والاجتماعية بشكل رئيسي. بل:

"كانت بالأحرى أداة، هي الأولى في لغة أوربية حديثة، لإظهار كيف يُموضع الصوت الشعري نفسه، أو اللغة المبينة عن ذاتٍ متكلمة، بين ثقافة موروثة في حالة تدفق وبين لا وعي محدَّد، معبَّراً عنه في قصائد غنائية بوصفها وعياً فردياً يجد هويته أو يسائلها"(٢).

"وكان دور هذا الصوت المتكلم كذلك أن يكتشف أو يكشف الصلة ما بين الذات المتكلمة "الأنا"، والطبيعة، والعالم الاجتماعي المتجسّد بـ "المرأة الحبيبة" أو "Domna"، وهو دور لا يظهر في الأغاني ذاتها فقط، بل يظهر كذلك في الأسماء التي يُمنحها الشاعر أو تمنحها عملية النظم. فكلمة تروبار "*Trobar*" كلمة بروفنسالية قديمة تعني "أن تخترع/ تبدع، بالإيجاد أو الاكتشاف" وبعدها "أن تنظم شعراً موسيقياً". وتروبادور *Troubadour* حرفياً هي المبدِع المخترِع: تشير إلى الشاعر- المؤلِّف الموسيقي".

"ولكن "*تروبار*" تدل على طور الاكتشاف، على الجزء الصامت من عمل الشاعر. والأداء، أوالتصويت اللاحق للأغنية يكمل العملية، ولهذا سلك غيوم مصطلحاً ثانياً هو "*chanter*" "أن تغني" ليصف الفعالية الشعرية التي اخترعها. إن جاذبية شعر التروبادور تكمن في التوتر المصقول الذي يُحافَظ عليه ما بين عملية "الاختراع" الداخلية الصامتة *(trobar)*، والإفصاح عن ذاك الاكتشاف في عالم الأداء الاجتماعي (*chantar*) والذي قاد إلى أسماء مثل: البيت *vers*، و *canso* أو الأغنية، التي عُرِف بها جنس القصيدة الغنائية الأكثر تطوراً وصفاء"(٣).

---

(١) انظر:

Stephen G. Nichols, "1127 Death of William IX of Aquitania, the First Troubadour", in:
A New History of French Literature, Edited by Denis Hollier
(Harvard University Press, Cambridge Ma., and London, 1989, pp. 30-31

(٢) *المرجع نفسه*، ص ٣١.

(٣) *المرجع نفسه*، ص32 .

كان هذا إنجاز غيوم التاسع العظيم الذي خلّده، فقد كان رائد الشعر الغنائي الأوربي، الذي فتن القارة الأوربية بأسرها، وانتشر بها انتشار النار في الهشيم، بدءاً من شمالي فرنسا، إلى شمالي إيطاليا وجنوبها، إلى ألمانيا، إلى إنكلترا، وحفز الخيال الأوربي على نظم أروع القصائد الغنائية في آداب العالم، حتى بلغ مداه لدى الصانع الأمهر إزرا باوند، شيخ ت. س. إليوت، ومنقح قصيدته ***الأرض الياب***، ولكن السؤال الذي سأله كثيرون، وأجاب عنه الكثيرون أيضاً، هو كيف تأتت هذه الطفرة لغيوم التاسع؟ وهل كانت طفرة حقاً؟ أم كان وراء ظهورها عوامل خارجية أوقدت جذوة الإبداع لدى منتجها؟ وما الذي فعلته مجاورته لشمالي الأندلس، وغزواته ومشاركاته في حرب الاسترداد الإسبانية، والحملات الصليبية، في إنتاجه الشعري؟

ولكن من هو غيوم التاسع هذا؟

كان غيوم التاسع الابن الوحيد لأبيه، وقد ولد عام واحد وسبعين وألف ميلادية، أي بعد مضي سبعة أعوام على غزوة برباشترو التي انتصر فيها أبوه على المسلمين، وظفر منها برزق وفير وعدد كبير من الجواري الأندلسيات. وهكذا شبّ الابن وترعرع في قصر أبيه بين نسائه وجواريه. ولما مات الأب عام ستة وثمانين وألف خلفه الكونت الفتى في الحكم، وورث عنه أملاكاً شاسعة تفوق أملاك ملك فرنسا نفسه.

وكانت صلات غيوم التاسع وثيقة بإسبانية التي كان يتردد إليها زائراً لأختيه ماري زوجة بيدرو الثاني ملك أراغون، وأنييس زوجة ألفونسو السادس صاحب "زايدة" المسلمة. وما نلبث أن نجده يقدم في عام أربعة وتسعين وألف على الزواج من فيليبّا أرملة سانشَه راميري ملك أراغون ويرحل معها لقضاء صيف العام وخريفه بإسبانية حيث بلغت الموشحات والأزجال أوج ازدهارها في ذلك الوقت.

وفي عام ثمانية وتسعين وألف يبدأ غيوم التاسع نشاطه العسكري بحملات مختلفة على مقاطعات عديدة من جنوبي فرنسة، ولكنه يضطر إلى وقف هذه الحملات مستجيباً للدعوة التي وجهها البابا أوربان للمشاركة في الحملات الصليبية على الشرق العربي مهد السيد المسيح، الذي أراد الصليبيون فيما زعموا استعادته من أيدي العرب المسلمين. وهكذا يمضي إلى فلسطين في شهر آذار من عام واحد ومائة وألف على رأس جيش كبير هزم هزيمة منكرة في الطريق إليها. وينجو شاعرنا من الموت بأعجوبة ليعود في شهر تشرين الأول من عام اثنين ومائة وألف إلى بلاده بعد إقامة حافلة في المشرق العربي امتدت أكثر من عام، لينصرف بعدها إلى التردد على "المجتمعات الراقية في جنوبي فرنسة ينشد قصائد مقفاة ذات أنغام مبهجة".

ولم يمنعه الشعر والغناء واللهو من القيام بالحملات المختلفة على المقاطعات المجاورة، ولا من مساعدة ألفونسو الأول ملك أراغون في حملاته لاستعادة الممالك العربية المختلفة إلى أن توفي عام سبعة وعشرين ومائة وألف.

وهكذا اتصلت حياة أول شعراء التروبادور بالحضارة العربية الإسلامية اتصالاً مباشراً في : جنوبي فرنسة أولاً ؛وفي إسبانية ثانياً ؛ وفي المشرق العربي ثالثاً.

وكان لهذه الصلة "آثار قوية في تفكير صاحبها وسلوكه وتدينه. فقد تأرجحت شخصيته بين حضارتي العرب واللاتين، إذ "لم يكن عربياً مسلماً خالصاً ولم يكن لاتينياً مسيحياً خالصاً"[1]، وحسبه في ذلك كله أنه كان في شعره وفنه "صورة صادقة وصوتاً معبراً عن واقع مجتمعه في عصره"- هذا المجتمع الذي كان منفتحاً غاية الانفتاح على الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس.

بقي لنا من شعر غيوم التاسع إحدى عشرة قصيدة تعكس جميعها تأثره بالموشحات الأندلسية في العناصر الأساسية المكونة لشعره وهي اللغة، والشكل، والمضمون، وأسلوب التعبير.فلننظر في هذه العناصر، ولنبدأ باللغة.

وأوّل ما يلاحظه المرء في لغة غيوم التاسع بعض الخصائص اللفظية التي لانجدها عند غيره من الشعراء البروفانسيين من مثل إشباع بعض الحروف مداً في آخر الكلمات، وتبديل بعض الحروف بغيرها لتحفيف النطق بها، وإدخال كلمات غريبة لم تستعمل من قبل ولا أثر لها في اللهجات اللاتينية والرومانية والفرنسية القديمة.

وجميع هذه الخصائص يمكن إرجاعها إلى فن التوشيح والزجل في الأندلس لأنها "نتيجة حتمية أو ضرورة فنية فرضتها طريقة إخضاع الشعر لمقتضيات الموسيقى والغناء" كما يقول الدكتور عبد الإله ميسوم. إضافة إلى أن الكلمات الغريبة في قصائده هي كلمات عربية. ويبدو أنه كان يحاكي في ذلك الوشاحين والزجالين العرب في الأندلس الذين كانوا يستخدمون الخرجات الأعجمية في موشحاتهم وأزجالهم. "وكأنه كان يريد أن يميّز القفل في قصيدته بأن يكون في لغة عامية أو عربية".

وكذلك فإننا نلاحظ أن هيكل القصيدة عند غيوم لا نظير له في الأشعار الأوربية من قبل، بينما نجد له نماذج كثيرة في الموشحات والأزجال الأندلسية.

فالوحدة في قصيدة غيوم وفي الموشحة البدائية هي البيت أو المقطوعة، وكل بيت (أو مقطوعة) يبدأ بما يسمى بالمطلع أو المركز (إيستريبيللو) يليه غصن ذو أشطار ثلاثة متحدة القافية، ويختتم بقفل ذي شطر واحد من قافية المطلع إن وجد.

---

[1] انظر: عبد الإله ميسوم ، ***تأثير الموشحات في التروبادور***، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،)، 1981، ص ص ٢٢١- ٢٢٢.

" وقد استخدم غيوم نظام الموشح الأقرع أي الخالي من المطلع، كما استخدم نظام الموشح التام مع إدخال تغيير خفيف عليه، ولم يستغن في الحالتين عن العنصر الجوهري في كل مقطوعة (أو بيت) وهو القفل الذي اعتبره الوشاحون ركناً أساسياً لا يستقيم أي موشح دونه"[١].

وأما العنصر الثالث وهو المضمون فإننا نلاحظ أن قصائد غيوم التاسع تدور حول علاقة الرجل بالمرأة، والطبيعة.

"فأشعار أول التروبادور كلها غزل قبل الغناء. وقد انتشر هذا الغزل ممزوجاً بالنغم الموسيقي، وملفوفاً بوصف جمال الطبيعة والتباهي بأخلاق الفروسية والتفاني في خدمة الحب والمرأة الحبيبة، إلى درجة تحوّل معها غزل شاعرنا في مضمونه من حب عاطفي أناني هدفه استمالة المرأة إلى حب تعبدي إلهي هدفه إرضاء الخالق، وهذا الطابع العام للغزل الغيومي البديع في الشعر الأوربي نجده في الشعر العربي القديم عند أمثال عنترة بن شداد، وجميل بن معمر، وعمر بن أبي ربيعة بالمشرق، وعند مقلديهم من الشعراء والوشاحين والزجالين بالأندلس"[٢].

وإذا ماانتقلنا إلى أسلوب التعبير لدى غيوم فإننا نجده يمتاز بخصائص لم يتميز بها غير الشعر العربي بعامةٍ قبله. وقد ذكر الدكتور عبد الإله ميسوم بعضاً من هذه الخصائص فأشار إلى :

الحوار القصصي المعتمد على مقول القول ؛

الكناية عن اسم الحبيبة بلفظ ياجاري الطيب ؛

مناداتها بلفظ ياسيدي احتراماً لها ؛

استعداد الشاعر للموت في سبيل الحب والمحبوب ؛

كون المحب خادماً مطيعاً للمحبوبة ؛

وجوم الشاعر أمام الحبيبة واضطرابه بحضرتها[٣].

إلى آخر ما هنالك مما يصعب حصره في حيّز محدود كهذه الصفحات المعدودة.

وصفوة القول إن غيوم التاسع مدين للموشحات والأزجال في مواسم الحب التي فاض بها شعره الغنائي. ويبدو أنه وجد في الأندلس بعد اتصاله بالحضارة العربية الإسلامية فيها :

---

(١) انظر: عبد الإله ميسوم، *المرجع السابق*، ص ٢٣٤.

(٢) انظر: عبد الإله ميسوم، *المرجع السابق*، ص ٢٣٦.

(٣) انظر: عبد الإله ميسوم، *المرجع السابق*، ص ص ٢٣٩- ٢٤٠.

"مجالاً لتنمية ملكته الشعرية ومعارفه الأولية الموروثة بوطنه، ودفعت به أنفته الأرستقراطية- تلقائياً- إلى منافسة أمراء المسلمين بالأندلس في ميادين الفكر والحضارة، فحاكاهم في حرية التعبير الفني عن المشاعر بتمجيد المرأة التي هي محور الإلهام عندهم، لِيُنعَت، هو الآخر، بأوصاف العظمة والتمدن والفروسية، وبذلك استحق شاعرنا الأمير البروفانسي المحب لقب أول التروبادور".

وربما كان خير مايجسد التأثير العربي الإسلامي بوجوهه المختلفة في قصائد غيوم، الأنشودة التاسعة التي نوردها بترجمة الباحث الجزائري الأستاذ ميسوم التي ألحقها بكتابه المهم عن الموضوع والمعنون بـ "***تأثير الموشحات في التروبادور***".

يقول غيوم التاسع :

"كل فرحة تهون أمام هذه الفرحة الكبرى
وكل نبالة تتخلى عن مكانها
لسيدتي بما امتازت به من ظرف
ولطافة ونظرة بهيجة
وسيعيش مائة عام ذلك الرجل
الذي يحالفه الحظ فيفوز بفرحة حبها
إن فرحة حبها تشفي السقيم
والغضب منها يميت السليم
إن نفوذ حبها قد يؤدي بالعاقل إلى الحمق
وبالوسيم إلى ضياع وسامته،
وبالمتأدب اللطيف إلى الفظاظة والقبح،
كما أنه قد يُهذِّب طباع الفظ من الرجال
وإذا تفضل " سيدي " ومنحني حبه،
فإنني مستعد لقبوله معترفاً بفضله،
وأن أكون كتوماً للسر، وملاطفاً ظريفاً،
أقول وأفعل مايريد
حتى أستحق رضاه
وأنال منه الثناء"[1].

---

[1] انظر: عبد الإله ميسوم، *المرجع السابق*، ص ص ٢٩٠- ٢٩١.

ثيربانتس صاحب دون كيخوته

وكذلك فإن المجلد لا يلتفت إلى علاقة الكاتب الإسباني الشهير ثيربانتس بالموريسكيين، الذين يمكن أن يكون الرجل قد تحدَّر من أصلابهم، ولا إلى تجربته في الأسر الجزائري، والتي دامت خمس سنوات، وما تركته من تأثير في رائعته ***دون كيخوته*** - تأثيرٍ ظفر مؤخراً بدراسات جادة سعت إلى تدبر جوانبه المختلفة في تشكيل العديد من آثاره، وسعت إلى توثيق ذلك بكل ما تيسر لها من مخطوطات ووثائق ونصوص أدبية وغير أدبية، وقطعت جهيزة بذلك قول كل خطيب[١].

والواقع **أن المكون الدنيوي في الآداب الغربية**، والمتمثل بالخبرة الناجمة عن عملية التفاعل بين "الأنا" الغربي و"الآخر" الشرقي وبخاصة العربي المسلم، والتي امتدت على رقعة واسعة من الزمان والمكان وشملت مختلف وجوه التفاعل العسكري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والفكري وخلفت آثاراً واسعة في الأدب الغربي، ربما كان من أهم العوامل في تشكيل رؤية العالم التي ينطوي عليها هذا الأدب، وهو مايتجلى بكل وضوح في **تجربة الأسر التي مر بها ثيربانتس وما خلّفته من أثر في رائعته *دون كيخوته***[٢]، فقد أمضى الرجل واحداً وستين شهراً في الأسر الجزائري امتدت من شهر أيلول ١٥٧٥ وحتى شهر تشرين الأول عام ١٥٨٠ عندما أبحر إلى إسبانية مستعيداً حريته بعد أن افتدته رهبانية الثالوثيين بمبلغ خمسمائة اسكودو دفعتها لمالكه الجديد حسن وأنقذته في اللحظة الأخيرة قبل أن تبحر سفينة هذا الأخير إلى القسطنطينية، والتي ربما كانت غيرت مجرى حياته.

وهكذا عاد الرجل أخيراً إلى إسبانية "**المليك والعقيدة**"، اللذين أبقيا عليه، فقد عاش طوال فترة أسره وتحمّل معاناتها الممضّة بكل كبرياء وصبر محفوزاً بـ "**الرغبة في خدمة الله والملك**"، وهو ما كان يردده الرجل طوال فترة أسره.[٣]

---

[١] انظر:

Maria Antonia Garces, ***Cervantes in Algiers: A Captive's Tale***
(Vanderbilt University Press, Nashville, 2002); Frederick A. De Armas,
Don Quixote among the Saracens: A Clash of Civilizations and Literary Genres
(University of Toronto Press, Scholarly Publishing Division, Toronto, 2011).

وانظر كذلك كتاب نبيل مطر **الأتراك والعرب والإنكليز في عصر الاكتشافات** الذي يرصد فيه العلاقات الحميمة التي ربطت شعوب الشرق والشمال الإفريقي بالشعب الإنكليزي:

Nabil Matar, ***Turks, Moors and Englishmen in the Age of Discovery*** (Columbia University Press, New York, 1999).

[٢] انظر:

Maria Antonia Garces, ***Cervantes in Algiers: A Captive's Tale*** (Vanderbilt University Press, Nashville, 2002).

نعم لقد استطاع ثيربانتس ، فيما وَهِم، أن يتحرر من أسره، أو أن يفر من قدره، فيما بدا له، ولكن المفارقة أنه عاش هذا الأسرَ بقية حياته، وعاشَه بعد مماته، عندما خلَّده في أدبه المسكون، والمتخلِّل بتجربة الأسر في الجزائر. ورائعته ***دون كيخوته*** التي احتفل العالم عام ٢٠٠٥م بمرور أربعمائة سنة على نشر جزئها الأول، تشاركه الحال والمقال، ويتخللها الحضور العربي من الغلاف إلى الغلاف، لأنها مغمسة إلى حد الإشباع بهذه التجربة الفريدة.

وتُعَدّ رائعته من جهة أخرى تجسيداً لسعي إسبانية، الذي خاب فيما يبدو، إلى التنكُّر لماضيها، أو جزء حافل منه، امتد نحواً من تسعة قرون (٧١١- ١٦١٤ م)، . فقد حاولت طويلاً أن تنتزع نفسها منه بطرد ما يتصل به من سكانه، مسلمي إسبانية، وتطهير الأرض الإسبانية منهم في ذلك العام المشؤوم. وكان لها، فيما بدا لملوكها وحكامها، ما أرادت. ولكن المفارقة، ثانية، أن **المكان ما فتئ ينبئ عن السكان**، وبالتالي فإن أرواح أهله لم تغادره، وكان لا بد في نهاية المطاف لإسبانية من أن تقرَّ بنسب هذه القرون العربية الإسلامية والنظر إليها بوصفها مصدر فخر واعتزاز وغنىً لإسبانية الحديثة، التي حاولت ما وسعها الجهد أن تفر منه، وانتهت إلى تبنيه كاملاً، بل سعت إلى إدخاله إلى رحاب التاريخ الأوربي الذي ينبغي على ناشئي القارة وأجيالها الجديدة أن تقرأه حتى في مدارسها.

لقد كان هذا النسبُ قدرَها فكيف تهرب منه إلاّ إليه. هذا هو شأن ثيربانتس، وهذا هو شأن إسبانياه. ستظل إسبانية مسكونة بالحضور العربي. وسيظل **دون كيخوته**/الكتاب، ودون كيخوته/ الشخصية، مسكونين بما حاولا أن يفرّا منه، ومن **تجربة ربما كانت وراء خلود الكتاب وصاحبه الحقيقي، أو الافتراضي، معاً.**

"النوفيلا" وأصولها الشرقية

وكذلك فإنه لا يلتفت إلى أصول جنس النوفيلا، ولا إلى الدور الذي أداه الأدب القصصي العربي في الأندلس في نشأتها وتطوّرها. إذا ما سألتَ معنيّاً بالمصطلح الأدبي والنقدي عن مصطلح **"النوفيلا" Novella**، فإنه لا محالة سيحيلك على التاريخ الأدبي، ولاسيما تاريخ الأدب الإيطالي في عصر النهضة، وسيخبرك أنها سرد نثري يتراوح بين الثلاثمائة كلمة، ومائة صفحة، وأن هذا السرد يتميز بعدد من الخصائص:

- أولها أنه سرد نثري Prose narrative يتراوح طوله بين الخمسين والثلاثمائة صفحة فيما يراه بعضهم، في حين يُقلِّص البعض الآخر الحد الأدنى إلى 300 كلمة، والحد الأعلى إلى مائة صفحة؛

- وثانيها أنه سرد محكم البناء tightly structured يدور حول حدث event واحد، أو موقف situation محدد، أو على صراع conflict لافت للنظر، لا يتجاوز أياً منها ؛
- وثالثها أنه متخلل بالتشويق suspense والإثارة والترقب ؛
- ورابعها أنه غالباً ما ينطوي على نقطة تحوّل (wenderpunkt) غير متوقعة، وتفاجئ خاتمته القارئ حتى عندما تكون منطقية ؛
- وخامسها أنه يعنى بالشخصية الرئيسية Protagonist عناية خاصة، ويرصد ردود أفعالها على الحدث، أو الموقف، مثلما يبرز دورها في الصراع، وما تقوم به من محاولات لحله.
- وسادسها أنه سرد يلتفت إلى دور الراوي، وبخاصة الراوي- المتكلم First person narrator، والرواي غير الموثوق أو الذي لا يُعتمد عليه Unreliable narrator ؛
- وسابعها أنه غالباً ما يتضمن رمزاً ملموساً هو النقطة المستقرة في قلب السرد، والتي تحفظ عليه وحدته وتماسكه وانسجامه.

وسيؤكد لك أن النوفيلا تعود إلى جيوفاني بوكاتشيو الكاتب الإيطالي الذي كان أول من ابتكرها في مجموعته ***ديكاميرون***، أو ***الأيام العشرة***، وأنها كانت في الحقيقة البذرة التي خرجت من رحمها القصة القصيرة في مختلف أنحاء أوربا، والتي تطورت بدورها فيما بعد مع ظهور الصحافة، وانتشار الطباعة الانتشار الواسع.

وأنها باختصار **جنس أدبي فرعي أو ثانوي يقع بين القصة القصيرة والرواية.**

وسيضيف أنها منذ نشأتها قد أثرت في أجناس الرواية والمسرحية والشعر في الغرب كله. وأن ذلك تجلّى بما استمدته هذه الأجناس من حبكاتها وشخصياتها، وبخاصة في عصر النهضة.

وفضلا عما تقدم فإن النوفيلا مورست كتابتها على نحو واسع منذ نهاية القرن الثامن عشر، واتسع نطاق الاهتمام بها ليشمل معظم الآداب الأوربية بدءاً من القرن التاسع عشر، ولاسيما ألمانيا، التي نشط فيها غوته ومعاصروه ومن تلاهم بكتاباتها والتنظير لها، وانتهاء بكتاب القرن العشرين من أمثال هيمنغواي وماركيز ومحفوظ وغيرهم[1].

---

[1] انظر :

Cuddon, J. A., ***The Penguin Dictionary of Literary Terms and Literary Theory,*** Fourth Edition, (Penguin Books, London, 1999), Pp. 600-601;
Ross Murfin and Supryia M. Ray, ***The Bedford Glossary of Critical and Literary Terms***, 3rd Edition, (Bedford-St. Martin's, Boston – New York, 2009), pp. 349-350.

غير أن السؤال الذي يمكن أن يتبادر إلى ذهن متتبع هذا الجنس السردي الثانوي ومصطلحه وتاريخه هو:

هل كان ظهوره بداية في الأدب الإيطالي، ولاحقاً في مختلف الآداب الأوربية الغربية مجرد **طفرة** تشبه الطفرات الوراثية؟

أم كان **ضرباً** من العبقرية التي أوتيها بوكاتشيو في عصر النهضة، والذي شمل بعصاه السحرية كل وجوه الحياة الإيطالية؟

أم أن هناك **عاملاً خارجياً** أسهم على نحو من الأنحاء في نشأة هذا الجنس السردي؟ وإذا كان هناك **عامل خارجي** وراء هذه النشأة فهل كان هذا العامل **عاملاً أوربياً**؟ أم **وفد من ثقافة أخرى**؟ وإذا كان هذا العامل **وافداً** فكيف انتقل من مصدره، كائناً ما كان، إلى هدفه إيطالية وأدبها، وعن أي طريق، ومن توسّط في نقله؟

وربما كان من المؤسف حقاً أن أجيالاً من الباحثين الغربيين لم يكلفوا أنفسهم عناء التفكير في نشأة هذا الجنس فنسبوها إلى بوكاتشيو العبقري مطمئنين، إلى نزعتهم الراسخة في التمركز حول الذات الأوربية، غافلين عن حقيقة التفاعل الحميمي الذي طبع مختلف وجوه الحياة في أواخر ما يسمى بالعصور الوسطى وبدايات عصر النهضة في مختلف أنحاء القارة بين جنوبها الأقصى المتمثل بشبه الجزيرة الآيبرية وما جاورها شمالاً، وشرقاً من جيران جُنُب مثل إيطالية، وفرنسة، وجيران أبعد من مثل بريطانية، وألمانية. **ولو أنهم فكروا في هذا التفاعل، وإمكانية وجود عامل خارجي وراءه لتبينوا حقيقة الدور الذي أداه العامل الأندلسي خاصة، والعامل الشرقي عامة في نشأة الآداب الأوربية الفردية الحديثة.**

غير أن جيلاً جديداً معاصراً من الباحثين، الذين استطاعوا أن يُحرروا أنفسهم من أسر المركزية الغربية Western Centrism عامة، وأسر الشرخ الوجودي Ontological Divide للعالم ما بين شرق وغرب على نحو خاص – الشرخ الذي رسخه، عبر قرون، الاستشراق التقليدي المرتبط على نحو وثيق بخيار المواجهة مع الآخر، واحتوائه، بل إخضاعه، والتحكم بمقدراته إن أمكن، بدأ ينظر إلى مسائل صلات الشرق بالغرب من **منظور كوكبي planetary perspective**، ومن ثَم غدا قادراً على تدبّر هذه الصلات ومقاربتها بعيداً عن **فيروس القوة** الذي طالما لوّث الدراسات الغربية عن الشرق وباعد بينها وبين النظرة الإنسانية التي ترى في الآخر نظيراً جديراً بكل امتيازات الذات وحقوقها من احترام وتقدير وتفهم. وهو ما نجده بشكل واضح في رسالة آنا كونز بِيات، Anna Coons Pyeat التي حملت عنوان "**لاثاريو من تورميس وتقليد الحكاية-**

الإطار الوسيطة"[1]، والتي تقدمت بها إلى **جامعة تكساس** في أوستن ونالت عليها درجة الدكتوراه في الأدب المقارن عام 2005م.

وما يعنينا في هذه الرسالة التي حصلتُ على نسخة منها مؤخراً هو أن صاحبتها تخصص فصلها الأول، والذي يحمل عنوان "**الحكاية والحكاية- الإطار: المصطلح والمفهوم**"، لدراسة مصطلح الحكاية- الإطار Frametale ولما يختزله من مفهوم، شارحةً تضمناته ودلالاته فضلاً عن نشأته وتطوره وما ولّد من مناقشات (ص ص 6- 35)، في حين تنصرف في فصلها الثاني المعنون بـ "**حكاية الإطار الوسيطة**" (ص ص 36- 89) إلى مناقشة النماذج العالمية لهذه الحكاية والتي تشكل تقليداً قصصياً عالمياً تجاوز حدي الزمان والمكان من جانب، وتخطّى من جانب آخر عائقي اللغة والثقافة. وهكذا فإنها تبدأ بمناقشة تجلّي المفهوم في كتاب "***الأسفار الخمسة***" ***Panchatantra*** أو ***البانجانترا*** الهندي، ثم ***كتاب سندباد*** المعروف في الغرب بكتاب ***حكماء روما السبعة*** ***Seven Sages of Rome*** (ص ص 44- 50)، وتتناول بعد ذلك كتاب ***تدريب الكُتّاب*** ***Disciplina Claricalis*** لبتروس ألفونسي (ص ص 50- 55) فكتاب ***الكونت لوكانور*** ***El Conde Lucanor*** (١٣٤٠) لدون خوان مانويل (55- 61)، فـ***كتاب الحب الجميل*** ***Libro de beun amor*** (١٣٤٣) لخوان رويث (ص ص 61- 67)، فكتاب **ديكاميرون Decameron** (ص ص 68- 79)، وتختم الفصل بمناقشة المفهوم في ***حكايات كانتربري*** ***Canterbury Tales*** (ص ص 79- 89)، مخصصة بقية فصول الرسالة لمناقشة رواية ***لاثاريو من تورميس*** ***Lazarillo de Tormes***، التي تعدّها **أول رواية كُدية**، أو **أول رواية بيكاريسيكية**. ومعنى هذا أن الباحثة تخالف آراء جلّ من تعرّض لجنس **النوفيلا**، ولنشأته، وتطوره، ممن رأى فيه طفرة غربية أنتجتها عبقرية بوكاتشيو، الذي لم يكن غير حلقة في سلسلة طويلة من الإبداع الإنساني، ظهرت بواكيره الأولى في الشرق، وما لبثت هذه البواكير أن أنتجت ***كليلة ودمنة*** التي غدت رائعة كونية تُرجمت إلى أكثر من خمسين لغة ظهرت في عشرات النسخ المخطوطة في مختلف بقاع الأرض، وكان أيضاً من هذه البواكير ***كتاب سندباد*** (وهو غير السندباد البحار صاحب الرحلات السبع المسرودة في كتاب ***ألف ليلة وليلة***) والذي انتشر في أوربة الوسيطة تحت عنوان ***حكماء روما السبعة***، ولم يكن كتاب ***تدريب الكُتّاب*** ***Disciplina Claricalis*** غير ثمرة طيبة من ثمار الشرق، وبخاصة ذاك الجزء الذي انتقل منه إلى الأندلس العربية- الإسلامية، لأنه كان جماع المرويّات الشعبية المستمدة من مصادر مختلفة سمعها الرجل خلال فترة تكوينه الأدبي الثقافي والمعرفي من بيئة الأندلس التي سادها التسامح والعيش

---

(١) انظر:

Anna Coons Pyeatt, **"Lazarillo de Tormes and the Medieval Frame tale Tradition"**, D. Phi.. Thesis, University of Texas at Austin, December, 2005.

المشترك، والتي جمعها بداية في نسخة عربية كان يُتقن لغتَها إتقانَه لغتَه الأم، وهو اليهودي الذي تثقف بالثقافتين العربية والعبرية، ثم ترجمها إلى اللاتينية لغة أوربا في العصر الوسيط، فانتشرت انتشار النار في الهشيم وتركت بصماتها واضحة في كتاب ***الكونت دولاكانور*** **لدون خون مانويل**، ***وكتاب الحب الطيب***، ومجموعة ***ديكاميرون*** **لبوكاتشيو**، ***وحكايات كانتربري*** لجفري تشوسر، أي أن ما يراه دارسو العصور الوسطى الأوربيون، من الأجيال القديمة، من عبقرية في أعمال كبار كُتّابهم، إنما هو **نتاج عولمة أدبية انتقل فيها الإبداع من الشرق إلى الغرب ماراً بالعالم العربي الوسيط، مَشرِقه ومَغرِبه، ومغتنياً بما أضافه وطوّره كُتّاب هذا العالم ومترجموه من المشرق والمغرب، وليس طفرة في التاريخ الأدبي الغربي، وما عليهم إلا أن يخففوا من غلوائهم واعتدادهم بالعبقرية الغربية.**

خاتمة

وهكذا يتبين للمرء أن أجناساً أدبية غربية مثل الشعر الغنائي lyrical poetry، والرواية the novel، والرواية القصيرة the novella التي تحدّرت منها القصة القصيرةThe short story، قد ارتبطت نشأتها، مثلما ارتبط تطوُّرها، بأدب الأندلس، الذي كان مصدر الإلهام الرئيسي في ظهور هذه الأجناس، والذي ظل، على مدى أكثرمن عشرة قرون، من أهم المُحفِّزات التي شاغلت الأدب الغربي منذ بدايات عصر النهضة وحتى يومنا هذا. ومن المؤسف أن مجلّداً جمعياً، قامت على تأليفه نخبة من كبار المختصين في آداب الأندلس، لم يُعن بما أدّته هذه الآداب من دور خطير في نشأة الآداب الأوربية الحديثة.

قد يعتذر بعضهم عن هذا الإغفال بأنه قد سبق لماريا روزا مينوكال أن تناولت ***الدور العربي في التاريخ الأدبي الوسيط***، وأنها ذكّرت بهذا ***التراث المنسي*** في كتابها المذكور آنفاً، ولكننا إذ نشير إلى أن هذا الكتاب قد صدر أول ما صدر عام ١٩٨٧م، وأن مياهاً كثيرة قد جرت تحت هذا الجسر الحضاري الذي كانته الأندلس منذ ذلك التاريخ، وأن نصوصاً أساسية من هذا الأدب قد حُقِّقت، وأصبحت مُتاحة للقارئ الحديث والمعاصر، وأن كثيراً من الدراسات المقارنة قد عُنِيت بفسحة الأندلس ودورها في تحفيز نشأة الآداب الأوربية الحديثة وتطورها[1]، وأن روحاً جديدة قد انسربت إلى الدراسات الوسيطة عامة، وإلى الدراسات الآيبرية الوسيطة خاصة- روحاً تُثمِّن ما ساد هذه الفسحة من عيش مشترك بين مختلف الشعوب واللغات والأديان، فإنه يميل إلى الرأي بأن **إغفال الدور الأندلسي في نشأة الآداب الأوربية الحديثة بأجناسها المختلفة**

---

[1] انظر على سبيل المثال كتاب:

Wacks, David A., ***Framing Iberia : Maqāmāt and Frametale Narratives in Medieval Spain*** (Brill, Leiden • Boston, 2007).

لم يكن قراراً حكيماً، لأنه يتجاهل حقيقة كبرى من حقائق العصور الوسطى، هي الدَّيْن العربي الإسلامي الذي لازالت آثاره تُتَلمَّس في هذه الآداب حتى يومنا هذا، والذي لا يستطيع أن يتنصل منه أي دارس غربي، مالم يكن جاحداً، أو متعصباً، أو دافناً لرأسه في الرمال. ذلك أن الحضارة الإنسانية لم تكن في يوم من الأيام إلا حضارة مولّدة، وحضارة العصر الحاضر الذي يتسنّم فيها الغرب دورَ القيادة، سبق للعرب أن شاركوا فيها، مثلما شارك فيها المسلمون والشرقيون عامة، وليس من الصالح الإنساني طمس هذا الدور الذي يتجلّى في مختلف مرافق الحياة الحديثة والمعاصرة، وبخاصة في فسحة الفن الجميل العريق- الأدب. وإغفال هذا الدور لايتسق مع آداب رد التحية، التي أشار إليها أحد محرري الكتاب في مطلع ترجمته لقصيدة ابن زيدون "**أضحى التنائي**..

مكتبة البحث

• اصطيف، عبد النبي ، "نحن والاستشراق: تحوّلات ومؤشّرات إيجابية"، ***دراسات يمنية*** (صنعاء)، العدد ٤٩ ، كانون الثاني – آذار ١٩٩٣م، رجب – رمضان ١٤١٣ هـ،

• مونيكال، ماريا روزا، ***الدور العربي في التاريخ الأدبي للقرون الوسطى (تراث منسي)***، ترجمة الدكتور صالح بن معيض الغامدي (جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٩). **ص ص (٥٨- ٩٩)، ولاسيما ص ص (٨٩- ٩٣).**

• ميسوم، د. عبد الإله، ***تأثير الموشحات في التروبادور***، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،)، 1981.

• مينوكال، ماريا روزا ،***الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح***، ترجمة عبد المجيد حجفة ومصطفى جباري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب ٢٠٠٦.

Allen, Roger, and Richards, D. S., ***The Cambridge History of Arabic Literature: The Post-Classical Period,***(Cambridge University Press, Cambridge, 2006).

Ashtiany, Julia et al. (eds.), ***The Cambridge History of Arabic Literature: Addasid Belles – Lettres*** (Cambridge University Press, Cambridge, 1990).

Badawi, M. M., ***The Cambridge History of Arabic Literature: Modern Arabic Literature*** (Cambridge University Press, Cambridge, 1992).

Besston, A.F.L. et. Al. (eds.), ***The Cambridge History of Arabic Literature: Arabic Literature to the End of the Umayyad Period*** (Cambridge University Press, Cambridge, 1983).

Cuddon, J. A., ***The Penguin Dictionary of Literary Terms and Literary Theory,*** Fourth Edition, (Penguin Books, London, 1999), Pp. 600-601.

De Armas, Frederick A., ***Don Quixote among the Saracens: A Clash of Civilizations and Literary Genres***
(University of Toronto Press, Scholarly Publishing Division, Toronto, 2011).

Dodds, Jerrilynn D., Maria Rosa Menocal and Abigail Krasner Balbale, ***The Arts of Intimacy:Christians, Jews, and Muslims in the Making of Castilian Culture,*** (Yale University Press , New haven & London, 2008).

Garces, Maria Antonia, ***Cervantes in Algiers: A Captive's Tale*** (Vanderbilt University Press, Nashville, 2002).

Matar Nabil, ***Turks, Moors and Englishmen in the Age of Discovery*** (Columbia University Press, New York, 1999).

Menocal, Maria Rosa ,
- ***The Arabic Role in Medieval Literary History:A Forgotten Heritage***

(University of Pennsylvania Press, Philadelphia, 1987).

- ***Writing in Dante's Cult of Truth: From Borges to Boccaccio***

(Duke University Press, Durham and London, 1991)

- ***Shards of Love: Exile and the Origins of the Lyric***

(Duke University Press, Durham & London, 19940).
- ***The Ornament of the World: How Muslims, Jews, and Christians Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain***

(Little Brown, Boston, New York and London,2002).
Menocal, Maria Rosa, Raymond P. Scheindlin, and Michael Sells (editors),

The Cambridge History of Arabic Literature : The Literature of Al-Andalus
(Cambridge University Press, 2000).

Nichols, Stephen G., "1127 Death of William IX of Aquitania, the First Troubadour", in:
A New History of French Literature,
Edited by Denis Hollier
(Harvard University Press, Cambridge Ma. and London, 1989).

Pycatt, Anna Coons, **"Lazarillo de Tormes and the Medieval Frame tale Tradition"**,
D. Phil. Thesis, University of Texas at Austin, December, 2005.
Murfin, Ross and Supryia M. Ray,
The Bedford Glossary of Critical and Literary Terms, 3rd Edition, (Bedford-St. Martin's, Boston – New York, 2009), pp. 349-350.

Wacks, David A., ***Framing Iberia : Maqāmāt and Frametale Narratives in Medieval Spain***
(Brill, Leiden • Boston, 2007).

Weissbach, Muriel Mirak, "Andalusia: Gateway to the Golden Renaissance", ***Fidelio***, Volume 10, No. 3, Fall 2001, pp. 22-35

"The Power of Great Poetry to Shape Character and Build the Nation: Dante, Humboldt, and Helen Keller", ***Fidelio,*** Volume, 5, No. 2, Summer 1996, pp.4-28.

Young, M. J. L., Latham, J.D. and Serjeant, R.B.,
The Cambridge History of Arabic Literature: Religion, learning and science in the 'Abbasid period,(Cambridge University Press, 1990).

❑❑

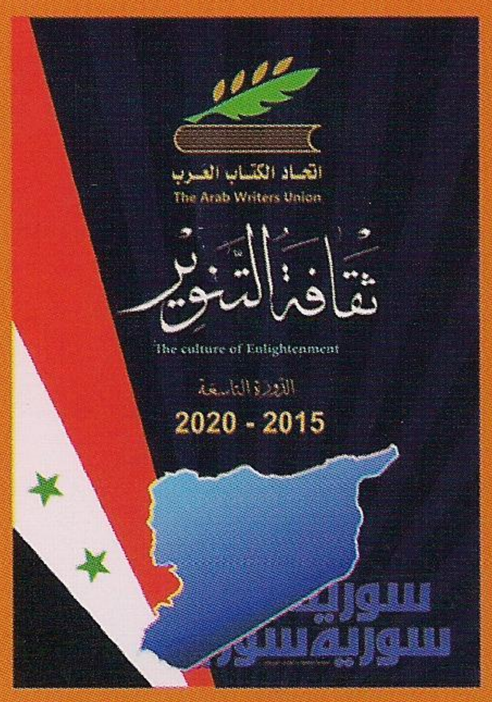

التراث العربي

مجلة فصلية محكمة تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد المزدوج 138-139 صيف-خريف 1435 هـ - 2015 م

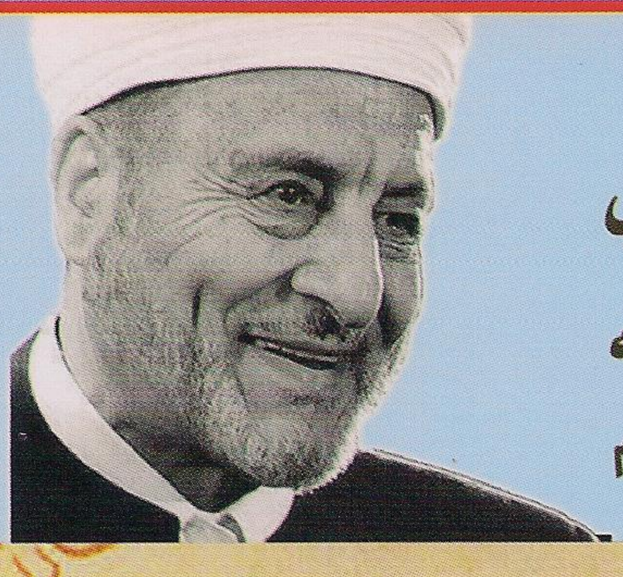

ملف العدد: بمناسبة رحيل العلاّمة الشيخ وهبة الزحيلي

عرض مجمل لسيرته وثبت بمؤلفاته

د.بديع السيد اللحّام

من رسومات يحيى الواسطي

■ ماذا يعني سقوط غرناطة
أ.د.علي دياب

■ أدب الأندلس بوصفه منطلقاً للآداب الأوربية الغربية
د.عبد النبي أصطيف